بحث عن الموجود بما هو ما له وجوده الخاص. وأما الإلهيات بالمعنى الأخص فإنها تبحث عن وجود الله تعالى وصفاته وتختص به ولا تبحث عما سواها.

ودراسة الموجود بشكل عام التي تتناول الموجودات مجردها وماديها ، يُطلق عليها اسم «الميتافيزيقا» وقد تصور البعض خطأ ، أنها تختص بالموجودات المجردة غير المادية ، إلا أن الصحيح شمولها للموجودات المادية والمجردة على حد سواء. فالبحث عن العلة والمعلول ، والوجوب والإمكان ، والحادث والقديم ، والقوة والفعل وما شابهها لا يختص بالموجودات المجردة غير المادية بل يشملهما معاً .
ومن الجدير ذكره أن الميتافيزيقا مأخوذة من أصل يوناني هو متاتافوسيكا أي ما بعد الطبيعة وحوِّرت بالعربية إلى (ميتافيزيقا) وحسبما يعتقده مؤرخو الفلسفة ، فإن هذه الكلمة استعملت لأول مرة في قسم من فلسفة أرسطو المتناولة لأحكام الوجود بشكل عام ، وحيث أن هذا القسم من بحث الفلسفة قد كتبه أرسطو حسب ترتيبه بعد بحث الطبيعيات ، لذلك فقد أطلق عليه اسم ميتافيزيقا ، أي ما بعد الطبيعة.

والفكر الفلسفي الذي أثارته وأفرزته تساؤلات الإنسان عن الكون والحياة ، والمبدأ والمعاد ، كان أحد المحاور الفكرية التي استقطب اهتمام البشر من لدن آدم ولحدِّ الآن ، ودفعه صوب التأمل والنظر ، ومن ثم نحو الإبداع والابتكار في هذا المجال ، وقد كان لحكماء الفرس واليونان قصب السبق في ذلك على بقية الأمم وكان ذلك قبل الميلاد بعدة قرون حيث طفحت على سطح مناظراتهم وتأملاتهم الفلسفية العديد من الآراء والنظريات ، التي كان يسودها الاتزان تارة والتهافت والتضارب تارة أخرى ، وفي ذات الوقت النمو والثراء بفعل التلاقح الفكري الحر الذي وفّرَ أجواء خصبة لذلك.

٣- التمييز بين الفكر والفلسفة

في البدء لابد من طرح التساؤلات التالية : ١-متى بدأ التفكير الإنساني؟ وبماذا يختلف الإنسان عن الحيوان في تغيير وتطوير محيطه الذي يعيش فيه؟ و٢- ما هو الباعث من وراء نشوء الفكر الفلسفي؟ ومن كان من بين الحكماء له قصب السبق في ذلك؟ ومتى؟ تراود الإنسان أحياناً وقد تلاحقه تساؤلات حول الوجود ومعناه؛ وهل هو متناه محدود أو مطلق لا محدود؟ وكيف وجد وهل هو في غنى عن علةٍ توجده أو مفتقر إليها؟ وهل لله خالق أو هو في غنى عن كل خالق؟ ولماذا لا يُرى الله جهرة؟!

ومن جهة أخرى فإن الإنسان ، هذا الموجود العملاق الذي حَلَّق في آفاق السماء ونفذ إلى أعماق الأرض وقعر المحيطات وفلق الذرة وابتكر العجيب والغريب ، تراه

حائراً يعيش الضياع وللسأم؛ إذ لا هدفَ حقيقي يصبو إليه ولا رؤية كونية واضحة يمتلكها إزاء الوجود ولا شمولية ولا انسجاماً يلمسه بين مفردات الكون وفصوله ، ومن أجل ذلك فإنه لا يعرف لماذا وضع قدميه في هذا العالم؟ ولماذا يُفرض عليه الخروج منه مرة أخرى؟ ولماذا تكون الحياة جميلة إبان الطفولة والشباب ، ثم تغدو رذيلة منغصة عند الشيخوخة وأرذل العمر؟!

ومن هنا فنحن بحاجة إلى ما يخفف قلقنا وينزع سأمنا ويبدل ضياعنا وضلالنا إلى هدى ونور ورَوْح وراحة ، والفلسفة تؤدي هذا الدور؛ لأنها تعطي لكل ما تقدم من تساؤلات ، إجابات مُبيَّنة وذلك بتحديد رؤية كونية واضحة عن الكون والوجود والحياة ، لتتحدد لنا معالم المبدأ والمنتهى والسبيل بينهما. وبعبارة أخرى : إن الفلسفة تميط اللثام عن التوحيد والمعاد ، والنبوة التي تُعد سَبيلاً للوصول إلى شاطئ المعاد بأمان بما تتضمنه من شرائع ومناهج وأحكام ، فلا يغدو وجود الإنسان عبثاً ولا يُمسي كريشةٍ في مَهب الريح ، بل يعرف نفسه ويعرف أنه من أين وفي أين وإلى أين.

وإذا كان دور الفلسفة الكشف عن المجاهيل ، وانتشال الإنسان من حالات الإبهام والضياع بحل شبهاته في ما يرتبط بأصل الوجود ومآله وحقيقته ، فلا نبالغ إن أطلقنا اسم العلم عليها؛ لأن العلم يقوم بتسليط أضوائهِ الكاشفة على ظلمات المجاهيل ليُسفر عن هويتها وحقيقتها ، وهذا بالضبط ماتؤديه الفلسفة لقرّائها ودارسيها.

نعم ، إن أُريد من العلم حَصيلة الأفكار والنتائج التجريبية التي يتوصل إليها الإنسان في مختبره أو في مجال الطبيعة ، فلا يصح حينئذٍ إطلاق اسم العلم على الفلسفة بهذا المعنى ، بل وكذلك لا تصح تسمية كهذهِ على التأريخ والجغرافيا ، والفقه وبقية العلوم الإنسانية غير التجريبية.

٤ـ أسباب التفكير عند القدماء ودوافعه

التّفكير الذي فسّر به الإنسان البدائي سلوكه، هو الذي اعتمد عليه في تفسير الطبيعة من حوله، فنسب إلى الطبيعة الجامدة أرواحا كروحه هو، وعزا أفعالها وظواهرها إلى إرادة خفية يتصوّرها على نحو ما يتصوّر إرادته هو، إرادة تعمل بحرية ذاتية دون تقيد بقانون أو نظام. ودون خضوع لمنطق العلل أو الأسباب.

لقد وجد الإنسان البدائي نفسه أمام عديد من الظواهر الطبيعية. كانت هذه الظواهر أكبر منه قوّة وأشد منه بأسا، وليحمي نفسه من غائلة هذه الظواهر اتجه نحو معرفة كنهها، وأن يجد لحوادثها تفسيرا. ولكن تفسير الإنسان البدائي لم يكن تفسيرا علميا بالطبع، ذلك أنه كان قاصرا محدود الخبرة ولذلك جاء تفكيره خياليا خرافيا. والإشكالية المطروحة هي كيف أنالتّفكير العلمي ؟ وكيف تطور هذا التّفكير؟ كيف انتقل الإنسان من معرفة ساذجة إلى معرفة علميّة ؟ أي من تفسير الحوادث الطبيعية بنسبها إلى علل غيبيّة كما كان سائدا في القديم. لقد نسب الإنسان البدائي عدة ظواهر إلى آلهة مثل إنساب البرق إلى إله، والمطر إلى إله آخر، بينما نجدإن المعرفة العلميّة تفسر الظواهر الطبيعية بالظواهر الطبيعية.

حسب أوغوست كونت، المعرفة العلميّة تمثل نضج العقل الإنساني، نضج اكتسبه عبر تاريخ طويل، لقد عبَرت الإنسانية ثلاث حالات من التّفكير نظرا لمرورها بثلاث مراحل :

الأولى : – الحالة اللاّهوتية : تمتد من العصور القديمة حتى القرن (٠٤) ميلادي، وفيها كان الإنسان يفسر الظواهر الطبيعية بقوة غيبية مفارقة للطبيعة كالآلهة مثل إله الشمس وا إله البحر وا إله الرعد وغيرها.

الثانية : – الحالة الماورائية : تمتد من القرن الرابع الميلادي إلى الثورة الفرنسية، وفيها كان الإنسان ينسب الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية محايثة للطبيعة لا تراها العين المجّردة، والطابع العام لهذا التّفكير أنه يؤمن بوجود أرواح للظواهر الطبيعية.

الثالثة : – الحالة الوضعية : تمتد من الثورة الفرنسية حتى الآن، و فيها توصل الإنسان إلى تفسير الظواهر الطبيعية بمثيلتها، أي التّفكير العلمي، واعتبر أوغوست كونت أن هذه المراحل متعاقبة في الزمان، إنها متّصلة بحيث أن نهاية والأولى تولّد بداية الثانية ونهاية الثانية تولّد بداية الثالثة.

٥- هل يرتقي الفكر عندهم الى الفلسفة

يكاد يعتقد الرأي على أن الشرق القديم قد سبق اليونان الى ابتداع حضارات مزدهرة يانعة ، تقوم على علوم عملية ناضجة ، ودراسات نظرية دينية قيمة ؛ فأما عن العلوم العملية فحسبنا أن نشير الى أن قدماء المصريين كانوا أو من أبتدع الرياضيات و اخترع الميكانيكا ، وابتكر الكيمياء و أنشأ علم الطب ، وأول من أخترع الكتابة و أقام المكتبات ودور الكتب ، وأن البابليين و الكلدانيين كانوا أو من درس أجرام السماء و أنشأ علم الفلك ..... ومثل هذا يقال في سائر شعوب الشرق القديم من حيث سبقها للغرب الأوربي القديم في مجالات البحث العلمي التجريبي .

أما عن التفكير النظري الديني فمن دلالات سبق الشرق للغرب في مجالاته ما خلفه لنا قدماء الشرقيين من وجوه النظر العقلي في الإلوهية و البعث ، والخير والشر ، والمبدأ و الضمير ... وغير هذا من مجالات توصلوا بصددها الى آراء تردد صداها بعد ذلك عند القدامى من فلاسفة اليونان ، ومنذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرناً من الزمان توصل في مصر القديمة (أمنحوتب الرابع المعروف باسم اخناتون) الى وحدانية الله مع شيوع الشرك الوثني في عصره ، وتوصلت (الزرادشتية) الفارسية الى الثنائية Dualism التي أرتد فيها العالم الى إله للخير و إله للشر ، أو مبدأ للحياة ومبدأ للموت ، كما عرف الهنود منذ أقدم العصور حلول الله في مخلوقاته .... الى آخر ما يمكن ذكره في هذا الصدد وكثير من فلاسفة اليونان الذين قيل أن الفلسفة قد نشأت على يدهم . كطاليس و فيثاغورس وديمقريطس . قد أموا بلاد الشرق القديم ، و اتصلوا بثقافاتهم ونهلوا من معينها . باتفاق بين المؤرخين .

ولكن جمهرة المحدثين من مؤرخي الفلسفة الغربيين . مع اعترافهم بسبق الشرق القديم الى ابتداع الحضارات ، وتأثر اليونان بتراث حكمائه . متفقون على أن الفلسفة اليونانية خلق عبقري أصيل جاء على غير مثال ! ومن دلالاتهم على هذا أن من أخص ما كان يميز التفكير الفلسفي اليوناني : التماس المعرفة لذاتها ، بمعنى أن يتجه العقل الى كشف الحقيقة يباعث من اللذة العقلية ، ومن غير أن تدفعه الى ذلك أغراض عملية أو غايات دينية ، وهذا النوع من المعرفة النزيهة قد نشأ لأول مرة في ظل اليونان وعاش في كنفهم ، بحثوا في الوجود لمعرفة أصله ومصيره ، وتأملوا موجوداته وما يعروها من صنوف التغير ، بدافع من الرغبة النزيهة في طلب

المعرفة ، ومن غير أن تسوقهم إليها ضرورة ملحة ؛ أما الشرق القديم فقد التمس المعرفة ليسد بها حاجة عملية ، أو يشبع بها عقيدة دينية ، والى هذين النبعين ترجع معلوماته التجريبية وتأملاته العقلية .

قالوا أن المصريين قد استخدموا الرياضيات في مسح الأرض وشق الترع وغيرها من أغراض عملية ، واستعانوا بها وبالميكانيكا على أقامة الأهرامات ، التي ما زالت تتحدى الزمن ، أقاموا لحفظ الجثث المحنطة اعتقاداً منهم في خلود النفس وحساب اليوم الآخر ؛ وتوسلوا بعلم الكيمياء في تحنيط الجثث واستخراج العطور و الأصباغ والألوان وغير هذا من أغراض دينية ؛ ولكن اليونان هم الذين أنشأوا هذه العلوم في صورتها النظرية الخالصة و تجاوزوا في الر ياضيات مرحلة الأمثلة الفردية المحسوسة الى مرحلة التعاريف و البراهين فتوصلوا الى القوانين والنظريات التي تستند الى البرهان العقلي .

وكذلك كان الحان في علم الميكانيكا النظري ، كان اليونان . فيما يقول جمهرة الغربيين من المؤرخين . أول من عالج دراساته بروح علمية ، إذ كان لأرسطوا الفضل في إنشاء هذا العلم النظري ة إن أخطأه التوفيق في صيغة عباراته ، وأكمل السكندريون من أمثال أرشميدس ٢١٢ ق.م ممن "قننوا" المعلومات الميكانيكية لأول مرة في تاريخ العلم .

وكان البابليون والكلدانيون قد سبقوا الى مشاهدة الكواكب ور صدها ، فأنشأوا بهذا علم الفلك العملي ولكنهم كانوا مسوقين بأغراض تنجيمية أو عملية (كمعرفة فصول الزراعة ومواسم التجارة ونحوها) ، أما اليونان فهم الذين أقاموا علم الفلك النظري ؛ رصدوا الكواكب لمعرفة " القوانين " ووضع " النظريات " التي تفسر سيرها وتعلل ظهورها واختفاءها ، ويرجع الفضل الأكبر في هذا الى بطلميوس السكندري (في القرن الثاني) بكتابه " المجسطي " الذي ظل المرجع الرئيسي في علم الفلك حتى مطلع العصر الحديث .

ومثل هذا يقال في العلوم التي أدت إليها في الشرق القديم بواعث دينية ، أو أغراض عملية ، عالجها اليونان بروح علمية حتى نشأت علوما نظرية تستند الى البرهان العقلي ، وتقوم على "تقنين" المعلومات بغير باعث ديني أو عملي .

هذا عن العلم التجريبي ومناهجه بوجه عام ، أما عن التفكير النظري المجرد فيقال أن حكماء الشرق القديم قد أرادوا به إصلاح الدين ، والنجاة من الشر ، ومن ثم كان النظر العقلي عندهم وسيلة وليس غاية في ذاته كما كان حاله عند اليونان ، وامتزج في مناهج بحثهم الاستدلال العقلي بالخيال و البداهة ، واختلط في تفكيرهم الدين بالفلسفة ، بل كان تفكيرهم في هذه المجالات وليد معتقداتهم الدينية ، فلم يجردوا الفلسفة من الدين ويعالجوا موضوعاتها لذاتها ، ومن هنا كان عجزهم عن وضع مذاهب تجمل الحقائق التي يتوصلون إليها بالبرهان العقلي ، ومن أجل هذا جاهر مؤرخوا الغرب بأن الشرق وأن أنشأ الحضارات الإنسانية الأولى ، فإن العلم والفلسفة بمعناها النظري من ابتداع اليونان ؛ يقول شيخ الفلاسفة المعاصرين (برتزندرسل) ١٩٧١ في مطلع كتابه الضخم عن " تاريخ الفلسفة الغربية " إن اليونان . وليس قدماء الشرقيين . هم الذين (أنشأوا الرياضة وابتدعوا العلم الطبيعي وابتكروا الفلسفة) ، في مطلع القرن السادس قبل ميلاد المسيح ، كان مولد العلم و الفلسفة اللذين كانا . في ذلك الوقت . ممتزجين ، ولم ينفصل أحدهما عن الآخر ، والى مثل هذا ذهب أساطين مؤرخي الفلسفة من أمثال " تسلر " ، عرضوا للرأي الذي شاع منذ الماضي السحيق ورد الكثير من مذاهب الفلسفة الإغريقية الى بلاد الشرق القديم ، وقالوا أن رأيا شاع منذ القرن الثالث قبل ميلاد المسيح . لعل الشرقيين أول من اخترعوه ثم تبناه اليونان بعد ذلك . وخلاصته أن الفلسفة اليونانية . أو معظم مذاهبها الشائعة على أقل تقدير . قد هاجرت من الشرق القديم الى بلاد اليونان .... وهم يعترفون بأن اليونان مدينون للشرق بالكثير من النظم الدينية والأخلاقية و المعلومات الفلكية و الرياضية ، ولكنهم يرون أن الفلسفة اليونانية ومناهجها كانت خلقاً عبقرياً أصيلاً جاء على غير مثال ، ولم ينشأ قط عن حكمة الشرق القديم ، وهذه هي المعجزة اليونانية فيما يقول أمثال " هنري بير " ، وقد سفهوا الاعتماد على التشابه في وجهات النظر بين الشرقيين و اليونان لتبرير الحكم بأخذ اللاحق عن السابق ،لأن الشعوب الشرقية وا ِن كان لها أساطيرها وقصصها الديني عن بدء الخلق ونحوه من موضوعات فلسفية ، كانت جميعها على جهل بالتفلسف والتأمل في الوجود لمعرفة طبيعته و الوقوف على كنه موجوداته ،بالإضافة الى أن الفلسفة اليونانية وأن كانت تحمل طابعاً قومياً ملحوظاً ، إلا أنها كانت في مذاهبها الرئيسية لا تستوحي ديناً ، ولا تستفتي عرفا ، ولا تقيم لغير منطقها وزناً ، على عكس الحال في حكمة الشرق القديم ، إذ لم يقدر لها قط أن تستقل عن الدين وتستغني عن وحيه ، وقد كان " أرسطوا " . وهو أقدم شاهد يجوز الاعتماد عليه . يقرر أن